

التحرير والتنوير

ومعنى تبوؤ البيوت لقومهما أن يأمر قومه با اتخاذ البيوت على الوصف الذي يأمرانهم به . وإذ قد كان لبني إسرائيل ديار في مصر من قبل إذ لا يكونون قاطنين مصر بدون مساكن وقد كانوا ساكنين أرض " جاسان " قرب مدينة " منفيس " قاعدة المملكة يومئذ في جنوب البلاد المصرية كما بيناه في سورة البقرة لا جرم أن تكون البيوت المأمور بتبوتها غير البيوت التي كانوا ساكنيها .

واضطرب المفسرون في المراد من هذه البيوت وذكروا روايات غير ملائمة لحالة القوم يومئذ . فقل : أريد بالبيوت بيوت العبادة أي مساجد يصلون فيها وربما حمل على هذا التفسير من تأوله وقوع قوله (وأقيموا الصلاة) عقبه وهذا بعيد لأن العلم أن بني إسرائيل مفارقون مصر قريبا بإذنه . وقيل : البيوت بيوت السكنى وأمسكوا عن المقصود من هذه البيوت . وهذا القول هو المناسب للتبؤ لأن التبؤ السكنى والمناسب أيضا لإطلاق البيوت وكونها بمصر . فالذي يظهر بناء عليه أن هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم [] باتخاذها تهيئة للارتحال وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في " جاسان " قرب مدينة فرعون وقد جاء في التوراة ما يشهد بهذا التأويل في الفصل الرابع من سفر الخروج " إن [] أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البادية ليعملوا عيد الفصح ثلاثة أيام وأن ذلك أول ما سأله موسى من فرعون وأن فرعون منعهم من ذلك وأن موسى كرر طلب ذلك من فرعون كل ذلك يمنعه كما في الفصل السابع والفصل الثامن من سفر الخروج وقد صار لهم ذلك عيدا بعد خروجهم . وقوله (واجعلوا بيوتكم قبلة) أي هذه الخيام أو الأخصاص التي تتخذونها تجعلونها مفتوحة إلى القبلة . قاله ابن عطية عن ابن عباس .

لأن والمغرب المشرق بين ما هي الجهة وتلك . الكعبة لجهة العربية في اسم : والقبلة A E قبلة بلاد مصر كقبلة المدينة ما بين المشرق والمغرب وهي الجنوب فيجوز أن يكون التعبير عن تلك الجهة بالقبلة في الآية حكاية لتعبير موسى عنها بما يدل على معنى التوجه إلى الجهة التي يصلون إليها وهي قبلة إبراهيم فيكون أمر بني إسرائيل يومئذ جاريا على الملة الحنيفية قبل أن ينسخ بالاستقبال إلى صخرة القدس ويجوز أن يكون موسى قد عبر بما يفيد معنى الجنوب فحكيت عبارته في القرآن باللفظ المرادف له الشائع في التعبير عن الجنوب عند العرب وهو كلمة قبلة .

والحكمة في جعل البيوت إلى القبلة أن الشمس تدخلها من أبوابها في غالب أوقات النهار في جميع الفصول وفي ذلك منافع كثيرة .

والذين فسروا البيوت بأنها بيوت السكنى فسروا قبله : إما بمعنى متقابلة وإما بمعنى جعلوا بيوتكم محل صلاتكم وكلا التفسيرين بعيد عن الاستعمال .
وأما الذين تأولوا البيوت بالمساجد فقد فسروا القبلة بأنها قبله الصلاة أي جهة الكعبة .

وعن ابن عباس : كانت الكعبة قبله موسى . وعن الحسن : كانت الكعبة قبله كل الأنبياء . وهذا التفسير يلائم تركيب (اجعلوا بيوتكم قبله) لأن التركيب يقتضى أن المفعول قبله هو البيوت أنفسها لا أن تجعل الصلاة فيها إلى جهة القبلة فإذا افتقدنا التأويلات كلها لا نجد لها إلا مفككة متعسفة خلا التفسير الذي عولنا عليه وقد اختلفوا فيه فهذان ا □ إليه .
وأسند فعل (اجعلوا) إلى ضمير الجماعة لأن ذلك الجعل من عمل موسى وأخيه وقومهما إذ كل أحد مكلف بأن يجعل بيته قبله .

وأمرهم بإقامة الصلاة أي التي فرضها ا □ عليهم على لسان موسى والتي كانوا يصلونها من قبل مجيء موسى اتباعاً لإبراهيم عليه السلام وأبنائه . والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنة الشغل عن إقامة الصلوات فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة في مدة رحلتهم .

وعطف جملة (وبشر المؤمنين) على ما قبلها يؤذن بأن ما أمروا به من اتخاذ البيوت أمر بحالة مشعرة بترقب أخطار وتخوف فإنهم قالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة) فأمر موسى أن يبشرهم بحسن العاقبة وأنهم منصورون على عدوهم وناجون منه والمؤمنون هم قوم موسى الذين ذكروا في قوله (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) وفي قوله (إن كنتم آمنتم با □ فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على ا □ توكلنا)